المحاضرة الثالثة في الكورس الثاني / السابعة عشر ١٧ .

استاذ المادة: أ.م.د. عبد المنعم عبد الجبار علي جعفر .

التدوين عند العرب

التدوين التاريخي عند العرب

أ ـ التدوين التاريخي عند العرب قبل الإسلام :

ازدهرت الحضارة العربية قبل الإسلام في بلاد اليمن والحجاز ، ولم يكن العرب بعيدين عن التاريخ ، فكان لكل جماعة طريقها الخاص في التدوين التاريخي وقد وصلنا الكثير من أخبارهم على شكل كتابات ونقوش كان من أهمها كتابات بالخط النبطي والخط الحميري ونقوش من اليمن السعيد بالخط المسند وجدت على مخلفاتهم الأثرية من معابد وقلاع وسدود وأبنية تروي لنا أحداث العرب الماضية وفعالياتهم كأعمال البناء والحملات العسكرية والطقوس الدينية . وكان لهم تقويم خاص بهم هو سنة (١١٥ ق.م) وهو سنة وصول حمير إلى السلطان في اليمن[١] .

ويشير الهمداني في كتابة الإكليل إلى ما «ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها» والي «زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية»[٢] .

ويذكر الدينوري أنه يوجد نسخة لحلف بين اليمن وربيعة في الجاهلية[٣] مما يدل على أنه كان ثمة تسجيل وحفظ لوثائق الأمور العامة ولأهم إنجازات الدولة وتوثيق علاقتها مع الشعوب والدول الأخرى .

وكان لدى عرب الحيرة المناذرة ، كتب تحوي أخبارهم وأنسابهم ، كما

كانت لهم نقوشهم التسجيلية ، وكان لعرب بلاد الشام وتدمر والبتراء نقوشهم الخاصة التي ما تزال آثارها شاخصة حتى اليوم .

أما عرب الحجاز ونجد فكان لهم تراثهم الثقافي الشفهي الذي ركز على قصص البطولة وعلى مآثر العرب كالشجاعة والكرم ، وكذلك الحديث عن بيت الله الحرام وزمزم وما كان من أمرها ، وعن سد مأرب ، وكيف تفرّق الناس من حوله بعد انهياره إلى غير ذلك من الحوادث التاريخية وكان العرب في الجاهلية يؤرخون بأيام حروبهم المشهورة كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، كما كانوا يؤرخون بأحداث جسام ، مثل استيلاء الأحباش على اليمن ، وعام الفيل ، وانهيار سد مأرب ، وظل التاريخ العربي على هذا النحو إلى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي اعتمد الهجرة النبوية الشريفة سنة يؤرخ بها وتعتبر كبدء للتقويم الإسلامي .

ب ـ التدوين التاريخي عند العرب في الإسلام :

لقد كان فن الكتابة والتدوين التاريخي عند العرب المسلمين في بادىء الأمر يتصل بالحديث النبوي الشريف ، حيث كان الاهتمام عظيماً في معرفة ما رواه الرسول ﷺ إلى جانب معرفة الرواة ، والسبب في ذلك يعود إلى الرغبة الصادقة في التأكد مما يجب أن يؤخذ أو يترك ، وهذا ما أدى إلى ظهور علم التجريح والتعديل وهو ما يعرف اليوم بالنقد الظاهر والباطني لأي نص من النصوص التاريخية .

أما بالنسبة لبداية التدوين عند العرب المسلمين ، فيعتقد أنها كانت في زمن معاوية بن أبي سفيان[1] ، حيث قيل إنه استقدم «عبيد بن شريه» من صنعاء فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين[1] . ولكن نجد أن التدوين الفعلي قد بدأ حوالي منتصف القرن الثاني الهجري (٩ م) حيث كان الاتجاه العام إلى كتابة التاريخ قد بدأ من ناحيته الخاصة لا العامة . وهي سيرة الرسول ﷺ وقد حدد لنا الذهبي المتوفي سنة (٧٤٨ هجرية) السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية

كانت لهم نقوشهم التسجيلية ، وكان لعرب بلاد الشام وتدمر والبتراء نقوشهم الخاصة التي ما تزال آثارها شاخصة حتى اليوم .

أما عرب الحجاز ونجد فكان لهم تراثهم الثقافي الشفهي الذي ركز على قصص البطولة وعلى مآثر العرب كالشجاعة والكرم ، وكذلك الحديث عن بيت الله الحرام وزمزم وما كان من أمرها ، وعن سد مأرب ، وكيف تفرّق الناس من حوله بعد انهياره إلى غير ذلك من الحوادث التاريخية وكان العرب في الجاهلية يؤرخون بأيام حروبهم المشهورة كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، كما كانوا يؤرخون بأحداث جسام ، مثل استيلاء الأحباش على اليمن ، وعام الفيل ، وانهيار سد مأرب ، وظل التاريخ العربي على هذا النحو إلى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي اعتمد الهجرة النبوية الشريفة سنة يؤرخ بها وتعتبر كبدء للتقويم الإسلامي .

ب ـ التدوين التاريخي عند العرب في الإسلام :

لقد كان فن الكتابة والتدوين التاريخي عند العرب المسلمين في بادىء الأمر يتصل بالحديث النبوي الشريف ، حيث كان الاهتمام عظيماً في معرفة ما رواه الرسول ﷺ إلى جانب معرفة الرواة ، والسبب في ذلك يعود إلى الرغبة الصادقة في التأكد مما يجب أن يؤخذ أو يترك ، وهذا ما أدى إلى ظهور علم التجريح والتعديل وهو ما يعرف اليوم بالنقد الظاهر والباطني لأي نص من النصوص التاريخية .

أما بالنسبة لبداية التدوين عند العرب المسلمين ، فيعتقد أنها كانت في زمن معاوية بن أبي سفيان[1] ، حيث قيل إنه استقدم «عبيد بن شريه» من صنعاء فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين[1] . ولكن نجد أن التدوين الفعلي قد بدأ حوالي منتصف القرن الثاني الهجري (٩ م) حيث كان الاتجاه العام إلى كتابة التاريخ قد بدأ من ناحيته الخاصة لا العامة . وهي سيرة الرسول ﷺ وقد حدد لنا الذهبي المتوفي سنة (٧٤٨ هجرية) السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية

في الإسلام هي سنة ١٤٣ هجرية (٧٦٠ م) . حيث يقول : «. . . في سنة ثلاثة وأربعين ومائة شرع العلماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير . فصنف ابن جريح بمكة ومالك بالمدينة والأوزاعي بالشام ، وابن عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان بالكوفة ، وصنف ابن إسحاق المغازي ، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأي . . . . وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة»[١] .

ومن الحقائق العلمية التي يؤكد عليها الذهبي ، أن القرن الثاني الهجري ، هو فترة الانتقال من مرحلة التسجيل «غير المرتب» إلى التصنيف المبوب ، ويمكن أن نلاحظ في نشأة التدوين التاريخي أنه قر بمراحل ثلاث هي :

مرحلة التدوين الأولى : وتبدأ مع بداية العهد الأموي وتستمر حتى نهايته في مطلع القرن الثاني الهجري . وكان اهتمام التدوين فيها متوجهاً بصورة خاصة إلى مواضيع محددة من السيرة النبوية الشريفة ، وقد بدأت عملية التدوين نقلاً عن الشفاه وبعض الوثائق الأثرية والكتب الدينية التي نزلت قبل الإسلام . واشتهر في هذه المرحلة جمهرة من الرواة نذكر منهم : عقيل بن أبي طالب الأخ الأكبر للإمام علي «كرم» الذي كان يروي في مسجد المدينة وعمر بن خولة الملقب بالراوية الفصيح وأبو الخنساء عباد بن كسيب «الشاعر العلامة والراوية النسابة» وغيرهم[٢] وعلى يد هؤلاء كانت تجري الخطوات الأولى للانتقال بالتاريخ من حالة المعرفة الشفهية إلى المعرفة الكتابية ، من التاريخ المروي إلى التاريخ المكتوب .

وفي هذه المرحلة ظهر اهتمام الخلفاء بالمعارف التاريخية حيث نجد أن معاوية وكما نوهنا سابقاً أنه أحضر عبيد بن شريه من اليمن ليكتب له ، كما جمع الوليد بن يزيد أخبار العرب على يد حماد الراوية في ديوان خاص . ووضع هشام بن عبد الملك من يكتب له الأخبار وتاريخ ملوك الفرس[1] . ولكن النشاط في تسجيل مثل هذه الأمور التاريخية لم يكن قد أخذ انطلاقته الواضحة لأنه بقي رسمياً لحد ما أو دينياً ولم يصبح تياراً فكرياً ثقافياً واضح التدوين . ومن المتعارف عليه أن العلماء المسلمين لم يؤرخوا أو يدونوا الأحاديث النبوية الشريفة إلا في أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، مخافة أن يختلط الحديث بالقرآن ، ولهذا السبب انصرف الكثير منهم إلى تدوين السيرة النبوية الشريفة ، الصفحة الأولى من تاريخ الأمة العربية الإسلامية ، صفحةُ الجهاد في إقامة صرح الإسلام ، وجمع العرب تحت لواء الرسول محمد ﷺ وما يضاف إلى ذلك عن نشأة النبي الكريم وذكر آبائه وما سبق من أحداث لها صلة بنشأته ، من هنا يمكن القول إن كتابة السيرة النبوية الشريفة ، أول عمل من أعمال التدوين التأريخي يقوم به العرب المسلمين .

وبعد ذلك بدأ المؤرخون العرب يؤرخون سيرة الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين وغيرهم من طبقات الفقهاء ورجال الأدب والنحو .

مرحلة التدوين الثانية : وتبدأ من مطلع القرن الثاني الهجري وتمتد حتى نهايته تقريباً . وفي هذه المرحلة اهتم الأخباريون بجمع الأخبار المختلفة كل منها على حدة في كتاب يحمل عنوانه الخاص ، إذ وجد المؤرخون في هذا المجال ميادين هامة لفعالياتهم الفكرية والثقافية ومواضيع مهمة للناس من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي لم تطرق سابقاً ، فظهرت جملة من الكتب والرسائل التاريخية التي كان جل اهتمامها بالتاريخ الإسلامي بشكل خاص وتاريخ العرب الجاهلي وتواريخ الأمم الأخرى بشكل عام . ومن مؤرخي هذه المرحلة نذكر :

١ ـ أبو محنف (ت ١٥٧ هـ) الذي ألف ٣٢ كتاباً ، منها كتب : الردة والفتوح والشورى وصفين والخوارج وغيرها .

٢ ـ سيف بن عمر (ت ١٨٠ هـ) وله مؤلفات عديدة .

٣ ـ هشام بن محمد (ت ٢٠٤ هـ) .

٤ ـ الهيثم بن عدي (ت ٢٠٨ هـ) وله ٥٠ كتاباً في أنساب القبائل والخوارج وولاة الأمصار وخطط البصرة وخطط الكوفة وغيرها .

٥ ـ الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) ألف ٢٨ كتاباً . من عنوانيها أخبار مكة ، أزواج النبي ـ سيرة أبو بكر ـ يوم الجمل مقتل الحسين وغيرها .

٦ ـ المدائني : من رواد نهاية هذه المرحلة ، توَّجها بأعمال عظيمة ، حيث ترك لنا مجموعة نفيسة من الكتب التي تناولت في عنوانيها أخبار الجاهلية وأحداث الإسلام ، وأخبار الخلفاء والتاريخ الأدبي والحضاري للدولة العربية الإسلامية[١] .

مرحلة التدوين الثالثة : امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري وخلالها توطد علم التاريخ العربي الإسلامي ، وتوطدت مناهجه في التدوين من حيث الاعتماد على التسلسل الزمني وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد . وظهرت المؤلفات المتخصصة ككتب التراجم والطبقات على اختلاف أنواعها ـ كطبقات الأدباء والأطباء والرسل والملوك ، وظهرت أيضاً الموسوعات التاريخية الكبيرة التي تضم مختلف المواضيع في نسق زمني متصل . ومع ظهور حركة الترجمة والتطور الحضاري الذي حصل في العصر العباسي الأول تطورت الحياة الفكرية وامتلك المؤرخون خبرات إضافية ، جعلتهم أكثر عمقاً وتوازناً في النظرة التاريخية لمختلف الحضارات . من هنا نعتبر أن هذه المرحلة هي المرحلة التي استقر فيها علم التاريخ ، مع نشأة التدوين التاريخي المنظم ، الذي تطور وازداد عمقاً في القرون اللاحقة ، ومن المؤرخين المشهورين في هذه المرحلة ، الهيثم بن عدي الذي وضع أول

كتاب في التاريخ على أساس السنين محققاً بذلك ثورة في المنهج التاريخي ، ووضع أول كتاب في التاريخ على أساس الطبقات لتراجم الرجال ، وهاتان الخطوتان هما اللتان قُدِّر لهما أن تكونا أساس مناهج التدوين التاريخي العربي الإسلامي وقد احتلت كتب التراجم مكاناً مرموقاً في تاريخ العرب فيما بعد حتى أن عدد ما ألف في هذا المجال على يد العرب يفوق ما ألف لدى الرومان واليونان ، ومن هذه الكتب المهمة : كتاب الطبقات لابن سعد الذي يتعلق بشكل خاص بحياة الرسول ﷺ والصحابة ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وهناك كتاب في هذا المجال للعسقلاني ، هو كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

ومن أعظم المؤرخين شأناً ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) صاحب كتاب : تاريخ الرسل والملوك وأهم ما في هذا الكتاب أنه كتبه على نظام الحوليات فهو يتناول التاريخ سنة بعد سنة . دون العناية بذكر كل الأحداث وكذلك كتب معظم المؤرخين فيما بعد . ومنهم من تجاوز هذه المسألة ودون التاريخ على أساس عقود من الزمن أي كل عشر سنوات ونذكر منهم الحافظ الذهبي بكتابه المشهور تاريخ الإسلام ، ومنهم من كتب التاريخ على أساس حقبات ، كأن تماشي كل حقبة حياة خليفة من خلفاء المسلمين ومنهم اليعقوبي والبلاذري والمسعودي .

ومن المؤرخين العرب الذين وضعوا مصنفات بالدول والحكومات التي قامت في ظل الإسلام نذكر : الدينيوري ، صاحب كتاب الأخبار الطوال . وابن خلدون وكتابه المشهور «العبر» وأشهر ما في هذا الكتاب مقدمته التي تضمنها آراء فلسفية وتحدث عن فلسفة التاريخ وعلم العمران البشري أي علم الاجتماع لذلك يقال إن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع وواضع أسس فلسفة التاريخ العربي والإسلامي . وأخيراً يمكن القول : إن المؤرخون العرب اعتمدوا في تدوين التاريخ على إبداعاتهم الذاتية واجتهاداتهم الخاصة وكانوا مستقلين في كتاباتهم غير تابعين لحاكم أو سلطان وكتبوا التاريخ بدوافع شخصية فجاءت كتاباتهم أقرب إلى الحقيقة بعيدة عن التعصب والتحد .

مادة التدوين التاريخي العربي في مراحله الأولى

من خلال ما وصلنا من مؤلفات وكتب للمؤرخين في المراحل الثلاث التي مرّ ذكرها ، يمكن أن نستنتج أن المنابع التي استقى منها المؤرخون معلوماتهم كانت متنوعة وعديدة أهمها .

١ ـ القرآن الكريم : قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة حيث جاء فيه الكثير من القصص فيها ما تناول حياة الرسل والأديان السماوية والأقوام القديمة وأهل الكهف والإسكندر ذو القرنين وغيرها .

٢ ـ السيرة والمغازي .

٣ ـ أحداث التاريخ الإسلامي .

٤ ـ أخبار العرب قبل الإسلام .

٥ ـ الكتب السماوية (التوراة والإنجيل) .

٦ ـ تاريخ الأمم الأخرى كاليونان والرومان والفرس والهند والصين .

أشهر المدونات التاريخية العربية

دون العرب أنواعاً مختلفة من المدونات التاريخية يمكن تصنيفها إلى نوعين هما : التاريخ العام والتاريخ الخاص .

١ ـ التاريخ العام :

يتناول معظم نواحي الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والعمرانية . ونصنف تاريخ الطبري ضمن هذا التاريخ وكذلك ابن الأثير في كتابه الكامل وتاريخ أبي الفداء وتاريخ ابن خلدون .

٢ ـ التاريخ الخاص :

ويختص بتاريخ دولة من دول الإسلام أو تاريخ مدينة مشهورة ، أو يتناول حياة خليفة أو مجموعة خلفاء . وهكذا فإن التاريخ الخاص لم يشمل بين طياته مختلف نواحي الحياة . ومن الأمثلة على هذا النوع من التاريخ نذكر تاريخ الخلفاء للسيوطي وكتب الأزرقي والفاكهي عن تاريخ مكة والخطيب البغدادي عن تاريخ بغداد ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان .

ولا بد أن نشير إلى بعض البلدانيين العرب الذين كتبوا في موضوع مهم له علاقة بالتاريخ هو علم البلدان أهمهم:

١ ـ البلاذري : فتوح البلدان توفي عام ٩١٣ م .
٢ ـ اليعقوبي : كتاب البلدان توفي عام ٨٩٧ م .

٣ ـ ابن خردذبة : المسالك والممالك توفي عام ٩١٣ م .

٤ ـ الهمداني : كتاب الإكليل وكتاب صفة جزيرة العرب توفي عام ٩٤٥ م .

٥ ـ الإصطخري : صور الأقاليم وكتاب مسالك الممالك توفي عام ٩٥٧ م .

٦ ـ ابن حوقل : المسالك والممالك توفي عام ٩٧٧ م .

٧ ـ ابن النديم : الفهرست توفي في حدود ١٠٠٠ م .

٨ ـ البيروني : الآثار الباقية توفي عام ١٠٤٨ م .

٩ ـ البكري : معجم ما استعجم توفي عام ١٠٩٤ م .

١٠ ـ الإدريسي : نزهة المشتاق توفي عام ١١٦٥ م .

١١ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان توفي عام ١٢٢٩ م .

١٢ ـ القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات توفي عام ١٢٨٣ م .

١٣ ـ أبو الفداء : تقويم البلدان توفي عام ١٣٣١ م .

١٤ ـ ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة توفي عام ١٣٧٧ م .

١٥ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار توفي عام ١٤٤١ م .

وأخيراً يمكن القول : إن المنهج العربي في كتابة التاريخ قد انتقل إلى أوروبا في القرون الوسطى حيث سار علماء التاريخ من الأوروبيين على خطى العرب في كتابة الحوليات والتراجم وغيرها من ضروب التأليف التاريخي .

وعلى الرغم من تطور طرق البحث العلمي في أوروبا في القرنين الأخيرين ، فقد بقيت الملاحظة المباشرة وشهود العيان ، العرف الأساسي عند علماء مناهج البحث العلمي في العصر الحديث .